شيخ الشباب

المغرب - عدد خاص بذكرى الأربعين
السنة السادسة - العدد 937 الأربعاء 6 ربيع الآخر عام 1361 الموافق 29 أبريل سنة 1942

عبد الكبير الفاسي

كان السعيد أصغرنا سنا وأكبرنا عقلا. كان شيخا في شبابه بينما لم يبلغ كثير من الشبان الذين مات في سنهم أشدهم.

لا أعرف شابا له من صفات الرجال المكتملين ما كان له من رزانة الطبع وسداد الحكم وحصافة الرأي ورباطة الجأش؛ كان رجل الصعاب لا يروقه في الحياة الخوض في سهل الأمور والقضايا، فكان لا يرضيه أن يقدم على أمر يتيسر إنهاؤه بمجرد إقدامه إليه.

كان السعيد جنديا في ميدان العمل، لا يعرف الكلل ولا الملل، ولا يتضجر إلا من سوء النية إذا استشعرها من صاحبه، لا أعلم أنه أشرقت عليه شمس في فراش إلا في مرض، يقضي يومه في عمله بل في أعماله الكثيرة المضة وزياراته واقتبالاته ولا ينام إلا بعد أن يغط غيره غطيط من لا هم له، بل لا ينام إلا بعد مغالبة النوم ومقاومة الإعياء.

ولم يكن جنديا في ميدان العمل وكفى، بل كان جنديا في بساطة عيشه وتقشفه، وذلك بالنسبة لما كان في الإمكان أن يتمتع به من رغد العيش في أحضان والديه الحنونين وبما كان يكسبه من ربح مشاريعه الناجحة، ولكنه كان جنديا في ميدان العمل فكان يختار أن يعيش عيشة الجنود حتى لا يضيع عليه الاهتمام بأمر نفسه الاهتمام بأمر الناس.

أمر الناس ذلك ما كان غايته من الحياة. ولا نعلم فيما نعلم من شؤونه أنه كان يعيش لنفسه أو يعمل لنفسه أو يتعب لنفسه؛ كان كل سعيه وراء المصلحة العامة التي جعلها هدفا وغاية في جميع المشاريع التي أسسها، وإنما أسس المشاريع من صحف ومطابع لا ليربح دراهم كان في غنى عن السعي لها والكد لاقتناصها، ولكن ليكون للمغاربة صحفا ومجلات ومطابع، وكان يعلم أنهم لا يحبون التجديد ولا يستطيعون الإقلاع عن التقليد، فكان يسير في شؤونه تلك من غير أن يهاجم الناس لا في معتقد ولا في عادة ومن غير أن يجرح عاطفة أو يكسر خاطرا؛ كان لبقا لبيبا في سياسة الناس الذين أخذ على نفسه خدمتهم بالرغم عنهم وبطيب خاطر منه.

يحسن السعيد للرجل القريب والبعيد من غير كلفة أو منة، فيربط قلبه ربطا موثقا بحبال متينة لا يعرف الرجل كيف الإفلات منها لأنها دارت به حين دارت وهو في حاجة إلى عمل السعيد ولأن السعيد لم يسق لها الطبول والمزامير حين أسدى ما أسداه للرجل. وأحب الإحسان إليه ما كان يشجع به الطلبة المعوزين والأدباء الذين كان يعضهم الدهر بنابه إذ كان يرى في ضياعهم وإحجامهم ضياعا للعلم والأدب، فما أكثرما كان يشجعهم به! ولقد كانت آماله في ذلك لو مد له في العمر فسيحة بعيدة المدى.

رحل للشرق والغرب قصد الدرس والاستطلاع، فأفاد واستفاد ورجع وكله تجاريب كأنه شيخ أكل الدهر عليه وشرب وهو في عنفوان الشباب، فكان يملي عليك مما رأى وسمع ما يدهشك، وتعلم منه أن الفضل ورجاحة العقل يوتيهما الله لمن يشاء من عباده وإن كانوا دون الثلاثين.

هو ذلك السعيد الذي عاش عيشة الأبرار وعمل ما يعمله الناس عادة في الأعمار الطويلة فيما دون الثلاثين، فقد خدم بلاده وناضل وسلك سبيل المفاهمة ولم يصدر منه في كل ذلك ما يخدش في مروءته.

كان السعيد ربعة إلى القصر، ولكنه كان طويل الباع في العمل، كبير القلب والعقل،

ويكفي أن نقول في فقده ليكون دليلا على فضله إننا كلنا تساءلنا عند موته: هل فينا من يخلفه؟ هل فينا من يخلفه؟ ولربما بقى هذا السؤال بغير جواب لولا أن روحه التي بثها في أعماله لا تزال ترفرف علينا بأجنحة من النور ها نحن نحس بعبيرها ونجيب سيستمر العاملون في عمل السعيد لأن السعيد كان لا ييأس، لأن السعيد كان روح الأعمال والأرواح لا تفنى ...

لم يضع في السعيد ذووه وأهله وهم ذوونا وأهلنا لأنهم من أطيب الناس وكفى، بل ضاعت فيه « أسرة المغرب » التي التفت حوله وكانت أسرته الروحية، وكان أفرادها وهم قليلون يعمل كل واحد منهم على حدة قبل التفافهم عليه، بل ضاع في السعيد المغرب كله وهو البلد القليل رجال الأعمال المفكرين المتبصرين الذين يربؤون بأنفسهم من أن يعيشوا لأنفسهم من غير أن يستفيد المغرب منهم بشيء.

المغرب في احتياج إلى رجال كهذا الفقيد العزيز يجعلون الإخلاص رائدهم والصدق رفيقهم في الحياة.

ويكفي للرجل فضلا أن يفتقد عند موته، ويكون قدوة لغيره ويقال في حقه: هل من يخلفه؟ هل من يخلفه؟

وهل يقال هذا في كثير من الناس؟

عليك السلام يا سعيد وقد عشت سعيدا بعملك، ولسان الحال يقول في حقك بعد موتك:

سيدكرين قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وأنت تعلم يا سعيد أن قومك الذين عشت لهم يجد جدهم في كل وقت وحين.

وعليك السلام ورحمة الله.